مقومات الصورة الاستعارية وجمالياتها في القرآن الكريم

Fundamentals of Quranic Metaphorical Imagery and its Aesthetics

Dr. Shakeel Ahmad
Lecturer, Department of Arabic Language and Literature
Allama Iqbal Open University, Pakistan
Email: shakeelahmad@aiou.edu.pk
Dr. Musaab Iftikhar Durrani
Lecturer, Department of Tafseer and Quranic Sciences
Faculty of Usuluddin, International Islamic University, Islamabad
Email: musaab.iftikhar@iiu.edu.pk

Abstract

This article aims to reveal the fundamentals of Quranic metaphorical imagery and their aesthetics. The Quranic images constitute figurative imagery, which are conveyed by figurative language such as in metaphors, similes, symbols, etc. This figurative language used in the Quran can certainly be looked in more detail. Metaphorical Imagery is formed from a group of fundamentals that unite and integrate to be the manifestation of the rhetorical inimitability of Quran. It allows the reader to draw various pictures of different situations with his imagination. The metaphorical imagery in the Quran is not separated from the linguistics, which is one of the most important elements that embodied the beauty of metaphor in it. The metaphorical symbol in the Holy Quran also expresses various connotations that it summarizes allows the imagination to draw inspiration and extract whatever it wants from the semantics, which confirms its importance in building the Quranic metaphorical imagery.

Keywords: Fundamentals, Aesthetics, Quranic Metaphorical Imagery, Rhetorical Inimitability

المستخلص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن مقومات الصور الاستعارية وجمالياتها في القرآن الكريم حيث تتشكل من مجموعة مقومات تتحد وتتكامل لتكون مظهر الإعجاز البياني في القرآن. ومن أبرز المقومات الخيال الذي يعد بدوره مقوما هاما في تشكيل الاستعارة القرآنية، ذلك أن التخييل هو الأساس الذي تنبني عليه الصورة الاستعارية، فهو يترك للقارئ أن يرسم بخياله صورا شتى لمواقف مختلفة. والصورة الاستعارية في القرآن ليست منفصلة عن اللغة والتي هي من أهم العناصر التي جسدت جمال الاستعارة فيه، إذ كثيرا ما تشترك الألفاظ في رسم الصورة الفنية القرآنية. كما يعبر الرمز الاستعاري في القرآن عن دلالات متنوعة يختصرها ويسمح للخيال أن يستوحي ويستخلص ما شاء من الدلالات مما يؤكد على أهميته في بناء الصورة

الاستعارية في القرآن الكريم. ويتبين من خلال هذا المقال بأن الاستعارة في القرآن الكريم تقوم على أساس التفاعل الذي يعتمد على نوع من التداخل الحيوي بين طرفيها المستعار منه والمستعار له.

الكلمات المفتاحية: المقومات، الجماليات، الصورة الاستعارية القرآنية، الإعجاز البياني

حين نزل القرآن الكريم عربياً مبينا، كان يشكل المعجزة الإلهية التي تؤيد دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولم تكن معجزة تتضمن ظاهرة حسية مؤقتة، تبهر من يراها، ولا يصل إلى البعيد عن رؤيتها إلا صداها، كما كان الشأن في معجزات الأنبياء السابقين، مثل طوفان نوح ونار إبراهيم وناقة صالح وقرية لوط وسحر موسى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى، عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليمات، وإنما كانت معجزة الرسالة الخاتمة، رسالة الإسلام التي حملها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كانت معجزة ظاهرة باقية، تكمن في نص القرآن الكريم ذاته، وتوجه إلى الجيل الذي تلقى الدعوة الأولى، وإلى كل الأجيال التالية إلى يوم الدين.

بل إنها تتعدى دائرة الإنس والمخلوقات التي نعرفها إلى دائرة الجن والمخلوقات التي لا نراها كما جاء في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ ([1]).

وظهر هذا الإعجاز في شكل التحدي لجيل العرب الذين ظهرت بينهم الدعوة، وهم جيل من الفصحاء والبلغاء، لم يرثوا من حضارة سابقيهم إلا إتقان الكلمة وإجادتها، والتنافس في فصاحتها، فلم تكن حضارتهم تظهر فيها ألوان الفنون والفلسفات، كما كان الشأن عند معاصريهم من الإغريق واليونان، ولا ألوان الطب والعلوم وإحكام البنيان ، كما كان الشأن عند الفراعنة، وإنما عرف عن العرب ألوان الفصاحة والبيان، وكانت حفاوتهم تبدو بالغة عندما ينبغ فيهم شاعر، فقد كانت القبيلة تحتفل بثلاث مناسبات: إذا ولد ولد، أو نتج فرس، أو نبغ شاعر[2]، وكان للكلمة البلغية عندهم- شعراً أو نثراً- فعل السحر، بها تقوم الحروب، وبها تُعقد المصالحات،وبها يكون الفخر من كل قبيلة على من عاداها.

وليس احتفاؤهم بالشعر الجيد في أسواق لقاءاتهم التجارية في عكاظ وغيرها إلا صورة من صور الاعتزاز البالغ بالكلمة، وليس تعليقهم للقصائد المشهورة على جدران الكعبة وإطلاقهم عليها اسم" المعلقات" إلا صورة واضحة لمدى حرصهم الكبير على الفصاحة والبلاغة.

ومن هنا جاءت معجزة القرآن، لكي تتحداهم في أعز ما يملكون، وتتحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة واحدة من مثله، قال تعالى: ﴿**وإن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ ([3]).

وقد عجزوا عجزاً بيناً عن مجاراة بلاغة القرآن، وما كان لجوؤهم إلى الرد بالسيف والسنان، إلا تأكيداً على عجزهم عن الرد بالفصاحة والبيان؛ ولذا كانت معجزة القرآن البلاغية تمثل وجهاً من وجوه معجزاته المتعددة ([4]).

كان العربي يفهم إعجاز القرآن، بفطرته ولغته السليقة التي لا يحتاج معها إلى معلم كي يدله على مواطن الحسن فيها، ولكن سرعة انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، وبين الشعوب غير العربية التي كانت لها لغات وحضارات أخرى طوتها الحضارة الإسلامية واللغة العربية هذه السرعة... أوجدت وضعاً جديداً، فقد وجد بين المسلمين شعوب لا تعرف العربية إلا بالتعليم، وبالتالي لا يمكن أن تدرك بالسليقة مواطن الحسن فيها، وجوانب الإعجاز في كتابها المقدس.

ومن ثم بدأ الدارسون من العلماء، البحث عن تفسير للإعجاز القرآني، وفي مثل هذا المناخ عادة تتعدد وجهات النظر في تفسير الظاهرة الواحدة، ومن الأفكار التي ظهرت في هذا المجال فكرة تفسير الإعجاز القرآني، بما أسموه" الصُرفة" على يد النظام(ت 231هـ) أحد شيوخ المعتزلة وتلاميذه في البصرة، وكانوا يعنون بها أن الله قد صرف قلوب العرب، عن الإتيان بمثل هذا القرآن، ولكن العرب إذا تركوا وشأنهم لأمكنهم الإتيان بكلام يساويه بلاغة وفصاحة،وممن نادوا بهذا الرأي إبراهيم بن سيّار النظام الذي يفسر به الإعجاز بأنه: "من حيث الإخبار عن الأمور الماضية، والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به، جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم، لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ([5]).

أما الباقلاني فألف كتابه" إعجاز القرآن" واضعا نصب عينيه تحقيق هدفين:

أولهما: إثبات أن القرآن الكريم معجز والرد على من جحد ذلك، أو شك فيه، أو أثار الشبهات حوله.

وثانيهما: هو بيان أوجه ذلك الإعجاز؛ ولذلك جاء عنوان كتابه يحمل بين دفتيه هذين الأمرين ويعبر عنهما أصدق تعبير.

وذكر الباقلاني أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت مبنية على دلالة معجزة القرآن، وأن إعجاز القرآن يظهر عنده في عدة وجوه، وقد أجملها في ثلاثة: الإخبار عن الغيب والإنباء عن قصص السابقين والأمم الماضية، والبراعة في نظمه وأسلوبه وبلاغته، وفصل هذا الوجه الأخير بوصفه أهم الوجوه في إعجاز القرآن، ودلل عليه بشواهد من الآيات الكريمة، ومما قاله في هذا الجانب: "وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله: ﴿**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**﴾ ([6])".. وهل تقع في الحسن موقع "لِيَأْخُذُوهُ".. كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع

موضع ذلك" ليقتلوه" أو" ليرجموه" أو" لينفوه" أو" ليطردوه" أو" ليهلكوه" أو" ليذلوه" ونحو هذا ما كان ذلك بديعاً ولا بارعاً، ولا عجيباً ولا بالغاً، فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام، وانتقاء الألفاظ، والاهتداء للمعاني، فإن كنت تقدر أن شيئاً من هذه الكلمات التي عددناها عليك، أو غيرها يقوم مقام هذه اللفظة لم تقف على غرضنا من هذا الكتاب، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب فافزع إلى التقليد واكف نفسك مؤونة التفكير ([7]).

وحين يحاول الباقلاني تفسير" النظم القرآني" يدير حديثه حول مخالفة الأسلوب القرآني لسائر الأساليب العربية البليغة، من شعر ونثر وسجع ومرسل حتى عن الحديث النبوي.

ويناقش ما انتهى اليه علماء عصره والسابقون عليه من قواعد بلاغية تقاس بها جودة الكلام – ومن تفضيل شعراء فحول لا يؤخذ عليهم كثير من التقصير والملاحظة فيما يقولون، ويرى أن هذه القواعد وأولئك الشعراء، لا يبلغون في شعرهم وبلاغتهم ذلك النمط العالي من النظم القرآني.

وأشهر النظريات البلاغية التي ناقشها الباقلاني نظرية" البديع" الذي كثر استخدامه عند شعراء التجديد في العصر العباسي الأول، من أمثال بشار وأبي تمام وأبي نواس ومسلم بن الوليد، أولئك الذين كانوا يكثرون من التعمد في بناء الاستعارة المكنية، والطباق، والجناس، ورد الأعجاز على الصدور، وغير ذلك من الوجوه البلاغية البديعة، أي الجديدة المستحدثة.

وناقش أولئك من قبل ابن المعتز في كتابه" البديع" وناقشهم كذلك أبو هلال العسكري في كتابه" الصناعتين"، وغير هذين من البلاغيين والنقاد؛ كالآمدي في كتابه" الموازنة"، وقدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر"، ولكن الباقلاني يناقش وجوه البديع هنا من زاوية خاصة وهي: هل تصلح هذه الوجوه تفسيراً لسر الإعجاز القرآني؟ وفي هذا المجال يقول الباقلاني:" ووجوه البديع كثيرة جداً. وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها. وإن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه وليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها، أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها.. أما شأوُ نظم القرآن فليس له نظام يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً ([8]).

التصوير بالاستعارة في القرآن الكريم

لا مراء في أن البيان القرآني المعجز لم يخرج في تأدية مضامينه وتصوير معانيه عن نسق العربية ومذاهبها في التعبير، بل لقد كانت تلك الحقيقة التي لم يجادل فيها أعداء القرآن من فصحاء تلك اللغة هي وجه تحديهم به؛ إذا لا يجوز التحدي كما قيل بما هو خارج عن عرف الخطاب ([9]).

ومن ثم كان عجزهم مع ذلك عن الإتيان لا بمثله بل بصورة واحدة، من مثله هو آية إعجازه البلاغي لهم من جهة، والحجة الداحضة لمفترياتهم حول سماوية تنزيله أو نبوة من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

وصورة الاستعارة في القرآن الكريم هي إحدى تلك السنن التعبيرية التي سلكها بيانه المحكم دون أن يشرعها أو يتفرد بها في اللسان العربي؛ وإنما كان وجه تفرده أو مناط إعجازه فيها هو أنه مع سيره في طرائقها المسلوكة وجريه في مضاميرها التي تسابق فيها ذوو الفصاحة واللسن قبل نزوله – فإنه قد حقق فيها الغاية التي لا تدرك وبلغ بها الذروة الفنية التي تقاصرت دونها– وتتقاصر– همم سالكيها والمبرزين فيها من البشر([10]).

وقد ورد في القرآن الكريم في أكثر من موطن الأسلوب الاستعاري التصويري المفهومي؛ كما في قوله تعالى ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ ([11])، حتى رسخت هذه الاستعارة في النفوس، بحيث صارت الشجرة – ربما بسبب هذه الاستعارة القرآنية الظاهرة الدلالة – نموذجاً أعلى من نماذج الوجود الإنساني.

وصور الله الحق كذلك كل المخلوقات أمماً أمثال أمم الناس يقول تعالى: " **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ ([12]).

وهكذا صار الإنسان يعي العالم من خلال نموذج استعاري مُقترح ضمن صياغة لغوية ويحاكيه. وصار الطرفان في التشبيه أو الاستعارة يتبادلان المواقع، أو يتناوبان لتعميم فكرة النموذج المبتغى لوعي الوجود.

اقتصر الأقدمون عندما تحدثوا عن الاستعارة في القرآن الكريم على ذكر أنواعها من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلي، ومن استعارة محسوس لمعقول، ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس، ومن استعارة تصريحية أو مكنية، ومن مرشحة أو مجردة، إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة[13]. وهم يذكرون هذه الألوان ويحصون ما ورد في القرآن منها، ويقفون عند ذلك فحسب، وبعضهم يزيد فيجري الاستعارة، ظناً أنه بذلك قد أدى ما عليه، من بيان الجمال الفني في هذا اللون من التصوير، ولم نر إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة، وإذا تأملنا بعض الألفاظ المستعارة سنجد أنها من هذا النوع الموحي؛ لأنها أصدق أداة تجعل القاريء يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محساً، وسوف نتوقف أمام بعض هذه الألفاظ المستعارة لكي نتبين سر اختيارها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا**﴾ ([14])، فكلمة" يَمُوجُ " لا تقف عند حد استعارتها لمعنى" الاضطراب"، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشاداً ألا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب، ولا تأتي كلمة (يَمُوجُ) إلا موحية بهذا المعنى، ودالة عليه ([15]).

والمستعار منه حركة الماء على وجه الخصوص، والمستعار له حركة الإنس والجن، أو يأجوج ومأجوج وهما حِسيان، والجامع لهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر ([16]).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ ([17])، فهنا لا تقف كلمة (ٱشْتَعَلَ) عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس، في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار حتى إذا تمكنت من الوقود، اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب. حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه التهاماً، وأتى عليه، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس.

وفي الآية تشبيهان: تشبيه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته، وتشبيه انتشاره في الشعر باشتعالها في سرعة الانبساط مع تعذر تلافيه، والأول استعارة بالكناية والجامع في الثاني عقلي، وكلامنا في غيرهما ([18]).

ويقول تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ ([19])، فكلمة(نَسْلَخُ) تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً، من ظلمة الليل.

والاستعارة في الآية استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي، والمستعار فيه كشط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها، والمستعار له إزالة الضوء عن مكان الليل وملقى ظله، وهما حسيان والجامع لهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر.

وقيل المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل، وليس بسديد لأنه لو كان ذلك لقال: ﴿**فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ ([20]) ولم يقل ﴿فَإِذَا **هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ ([21]) أي داخلون في الظلام ([22]).

وقال تعالى ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ**﴾ ([23])، ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب والقحط الذي تحمله الريح معها. والمستعار منه المرأة، والمستعار له الريح والجامع المنبع من ظهور النتيجة والأثر، فالطرفان حسيان والجامع عقلي.

وفيه نظر؛ لأن العقيم صفة للمرأة لا اسم لها، وكذلك جُعلت صفة للريح لا اسماً، والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع من الحمل، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر، وإلقاح شجر، والجامع لهما ما ذُكر ([24]).

وكثر في القرآن أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة، يدل بها على معقول معنوي، يصير به كأنه ملموس مرئي، فضلاً عن إيحاءات الكلمة إلى النفس، فمثلا عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ ([25])، فكلمة" نبذ" فضلاً عن أنها تدل على الترك، توحي إلى نفس القاريء معنى الإهمال والاحتقار؛ لأن الذي " يُنبذ" وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل.

وقوله تعالى ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ ([26])، فكلمة" القذف " توحي بهذه القوة التي يهوي بها الحق على الباطل، وكلمة" يدمغه" توحي بتلك المعركة، التي تنشب بين الحق والباطل، حتى يصيب رأسه ويحطمه، فلا يلبث أن يموت. ونلاحظ قوة التعبير بالظلمات والنور، ويراد بهما الكفر والإيمان.

وفي قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ ([27])، جمع الظلمات يكشف إلى أي مدى ينبهم الطريق أمام الضال، فلا يهتدي إلى الحق وسط هذا الظلام المتراكم.

ويقول تعالى: ﴿**إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ ([28])، نستشعر في كلمة "العقدة " هذا الرباط القلبي والميثاق المتين الذي يربط بين قلبي الزوجين.

ويقول عز وجل ﴿**فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ ([29])، فكلمة الصدع بمعنى الجهر توحي بما سيكون من أثر هذه الدعوة الجديدة، من أنها ستشق طريقها إلى القلوب، وتحدث في النفوس أثراً قوياً.

والمستعار منه هو صدْع الزجاجة – وهو كسرها- وهو حسي، والمستعار له تبليغ الرسالة، والجامع لهما التأثير، وهما عقليان كأنه قيل: أبن الأمر إبانة لا تنمحي، كما لا يلتئم صدع الزجاجة ([30]).

ويقول الحق سبحانه وتعالى ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ ([31])، فأي صلة متينة ذلك الدين الذي يربطك بالله، يثير هذا المعنى في نفسك هذا التعبير القوي المصور: حبل الله.

وحينما نتأمل جمال المفردة " أفرغ" في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ ([32])، ما يثيره في النفس من الطمأنينة التي يحس بها من هدأ جسمه بماء يلقى عليه، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية، ينالها من منح هبة الصبر الجميل، ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم " أفرغ" وهي توحي باللين والرفق.

وإذا تحدث الحق سبحانه وتعالى عن العذاب استخدم كلمة(صب) في قوله تعالى: ﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ ([33])، وهي توحي بالقوة والشدة معاً.

وعندما نتأمل قوة كلمة(زلزلوا) في قوله تعالى ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ ([34])، ولو حاولنا أن نضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدي معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف.

وقد يستمر القرآن برسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكن لها في النفس ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ ([35])، فقد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة والاهتداء في تصريف شئونها.

وقد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به روعة التعبير كما نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ ([36]).

فقد يبدو أن المناسبة تقتضي أن يقال: فألبسها الله لباس الجوع، ولكن إيثار الذوق هنا؛ لأن الجوع يشعر به ويذاق، وصح أن يكون للجوع لباس لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضنى والشحوب.

وقد يشتد وضوح الأمر المعنوي في النفس، ويقوى لديها قوة تسمح بأن يكون أصلاً يقاس عليه، كما نرى ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾([37])، فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة والفوران أصلاً يشبه به خروج الماء عن حده، لما فيه من فورة واضطراب، وعلى هذا النسق جاء قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾([38])، فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتو والجبروت.

وقد يجسم القرآن المعنى، ويهب للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية، ومن أروع هذا التجسيم قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾([39])، فنحن نحس بالغضب هنا وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة، ثم سكت وكف عن دفع موسى وتحريضه.

ويعلق الزمخشري على هذه الآية فيقول:" كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك، وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم، وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة" ([40]).

وكذلك أضفى القرآن صفة العقلانية على الجماد ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ ([41])، وفي ذلك التعبير ما يدل على خضوعهما واستسلامهما.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ**﴾ ([42])، وكأن الجدار لشدة وهنه وضعفه يؤثر الراحة لطول ما مر به من زمن.

وقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ ([43])، فهذا التميز من الغيظ يشعر بشدة ما جناه أولئك الكفرة، حتى لقد شعر به واغتاظ منه، هذا الذي لا يحس.

وعلى هذا النسق نقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى**﴾ ([44])، ونحس في هذا التعبير وكأن النار تعرف أصحابها بسيماهم، فتدعوهم إلى دخولها.

ولما كانت اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ظهر للعرب الأوائل وهم أهل الفصاحة والبيان، من إعجاز القرآن الكريم ما لم يظهر لغيرهم، ممن لم يمارس لغتهم، ويتعرف على فصيح كلامهم.

وفي بيان أهمية ممارسة لغة العرب، وبليغ كلامهم لمن يريد معرفة إعجاز القرآن يقول ابن عاشور –رحمه الله–: "ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه، كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم، وآدابهم من أئمة البلاغة العربية على مر العصور"([45]).

ومنه قوله تعالى:﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ ([46])، وفي ذلك ما يشعرك بالحياة التي تدب في الأرض، حين تأخذ زخرفها وتتزين..

يقول تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ ([47])، (التخطف) يصور حالة الفزع والاضطراب المباغتة عن العدو دون استعداد له.

ويقول تعالى: ﴿**وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ ([48])، تصور الآية ما كان فيه العرب أيام الجاهلية من إهلاك بعضهم لبعض عداوة وغارة وسلباً، صورت هذه الحال بحفرة من النار أوشكوا أن يقعوا فيها.

وفي موضع آخر يبين الحد الكافي من علوم العربية لطالب معرفة وجه الإعجاز حيث يقول العلامة ابن عاشور–رحمه الله–:" وبعد، فإن من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها، حتى يساوي أو يقارب العرب في ذوق لغتهم، ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم، ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية وأدركت إعجاز القرآن وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح"([49]).

الخاتمة

1. توجد مقومات عديدة التي تزخر بها الصور الاستعارية في القرآن الكريم، من أهمها أنها تتولد من قدرة التخيل والإحساس، فنجد أن القرآن يعبر عن المعنى الذهني بالصورة المحسوسة المتخيلة، وأن هذا الإحساس والتخييل هو الأساس الأول الذي تقوم عليه الصور الاستعارية في القرآن.

2. أن العلاقة التي تقوم بين طرفي الاستعارة القرآنية هي من صنع الخيال الذي يحاول أن يحدث التأثير في المواقف والدوافع عن طريق خلق عناصر جديدة لم تكن بينها وبين الصور الاستعارية علاقة من قبل.
3. لا تتوقف الصورة الاستعارية في القرآن الكريم عند الحدود الجمالية بل هي وسيلة لتحقيق أهداف وغايات إيمانية، فهي تجمع بين الأبعاد الفنية والدينية.
4. أن حركة الاستعارة الجمالية تستمد وجودها من السياق القرآني، ويكشف عن فاعلية الصورة إذا أقحمت الاستعارة في بيئتها الطبيعية.
5. أن الاستعارة في القرآن تؤكد المعنى وتبالغ فيه، وهي في تأدية هذا الغرض أبلغ من التشبيه، فحقيقة الاستعارة هي تناسي التشبيه، وكمال الادعاء أن المشبه والمشبه به من جنس واحد.
6. أن جمالية الصورة الاستعارية في القرآن الكريم تكمن في مقدرتها التامة على بث النشاط والحياة، والتجسيد للأمور المعنوية بإظهارها للعيان في صورة مشخصة وكائن حي ليكون لها الأثر البليغ والوقع اللطيف.
7. تعتبر الصور الاستعارية في القرآن الكريم أسلوبا لامعا ومشرقا، يجمع إلى جانب العمق في نقل اللفظ وإضفاء المعنى الشعور والحيوية في نصوصه وتعابيره الرائعة المؤثرة في النفوس الدالة على إعجازه.

الهوامش

[1] – سورة الإسراء، الآية 88

[2] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط. الخامسة، 1981م، 65/1.

[3] – سورة البقرة، الآية 23

[4] – البلاغة القرآنية: دراسة في جماليات النص القرآني.. الدكتور أحمد درويش، الدكتورة عزة جدوع، القاهرة، دار الرشد، ناشرون، 2010م، ص 9، 10.

[5] – يقول الشهرستاني في الملل والنحل على هامش كتاب الفصل لابن حزم 1 / 64.. صرفه صرفاً: رده عن وجهه وكفاه، وصرف الشيء تصريفاً: أعمله في غير وجه، كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه،وصرّف صَرَفَه،وشدد للمبالغة ولذلك فالقول بأن وجه الإعجاز في القرآن هو الصُرفة يعني أن الله صرَّف قلوب العرب عن معارضة القرآن،فزهدهم في معارضته،فلم تتعلق إرادتهم،ولم تنبعث إليها عزائمهم، فقعدوا على الرغم من توافر البواعث والدواعي، وهذا قول فاسد، ولا يتفق مع المعنى المفهوم من" إعجاز القرآن" بدليل قوله تعالى(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هُٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) " الإسراء 88 " فإنها تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم.

[6] – سورة غافر، الآية 5

[7] – إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 198، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، 1997

[8] – المرجع السابق ص 24

[9] – إعجاز القرآن للباقلاني، ج2، ص 189

[10] – الصورة البيانية في الموروث البلاغي: الدكتور حسن طبل، مكتبة الإيمان بالمنصورة، 2005م، ص 156

[11] – سورة نوح، الآيات: 17– 18

[12]– سورة الأنعام، الآية 38

[13] – من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص166

[14] – سورة الكهف، آية 99

[15] – من بلاغة القرآن: ص 167

[16]– الإيضاح في علوم البلاغة: ص 224

[17] – سورة مريم، آية 4

[18] – الإيضاح في علوم البلاغة: ص 226

[19] – سورة يس، الآية 37

[20] – سورة الأعراف، الآية 201

[21] – سورة يس،الآية 37

[22]– الإيضاح في علوم البلاغة: ص 225

[23] – سورة الذاريات، الآية 41

[24] – الإيضاح في علوم البلاغة: ص 226

[25] – سورة آل عمران، الآية 187

[26] – سورة الأنبياء، الآية 18

[27] – سورة إبراهيم، الآية 1

[28] – سورة البقرة، الآية 237

[29] – سورة الحجر، الآية 94

[30] الإيضاح في علوم البلاغة: ص 225

[31] – سورة آل عمران، الآية 103

[32] – سورة الأعراف، الآية 126

[33] – سورة الفجر، الآية 13

[34] – سورة البقرة، الآية 214

[35] – سورة البقرة، الآية 16

[36] – سورة النحل، الآية 112

[37] – سورة الحاقة، الآية 11

[38] – سورة الحاقة، الآية 6

[39] – سورة الأعراف، الآية 154

[40] – الكشاف: ج3 / 128

[41] – سورة فصلت، الآية 11

[42] – سورة الكهف– الآية 77

[43] – سورة الملك، الآية 6: 8

[44] – سورة المعارج، الآية 15: 18

[45] – التحرير والتنوير: ج1 / 105

[46] – سورة يونس، الآية 24

[47] – سورة الأنفال، الآية: 26

[48] – سورة آل عمران، الآية: 103

[49]– التحرير والتنوير: ج1/ 349

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.

1. إعجاز القرآن: أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، 1997م.
2. الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع– الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن جلال الدين، ط 1، دار الكتب العلمية، 2003م
3. البلاغة القرآنية: دراسة في جماليات النص القرآني .. الدكتور أحمد درويش، الدكتورة عزة جدوع، القاهرة، دار الرشد ، ناشرون، 2010م.
4. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ج1/ 105 الدار التونسية للنشر، 1984م.
5. الصورة البيانية في الموروث البلاغي: الدكتور حسن طبل، مكتبة الإيمان بالمنصورة، 2005م.
6. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ضبط يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة.
7. من بلاغة القرآن: الدكتور أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.